

بين أهله

« إذا رأيت رجلاً موقفاً فيما يحاوله ، مسدداً الخطأ إلى الهدف
الذى يرى إليه ؛ فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتغبه ! »

إننى لا أعرف — فيمن أعرف — أحداً تنطبق عليه هذه الحكمة انطباقها
على حياة الرافى ؛ فالواقع الذى يعرفه كل من خالط الرافى وعرف طرفاً من حياته
الخاصة ، أنه ما كان ليبلغ مبلغه الذى بلغ لولا الحياة الهادئة التى كان يحياها
فى بيته ؛ فالى زوجه يعود فضل كبير فى نجاحه وتوفيقه وهدوء نفسه ، هذا الهدوء
الذى هياؤه لدراسة نفسه ودراسة من يحوله والتفرغ لأدبه وفنه ، لا يشغله عنهما
شغل مما يشغل الناس من شئون الأهل والولد .

وقد تزوج الرافى فى الرابعة والعشرين من عمره ؛ ولزواجه قصة فيها طرافة
وفيهما مجال للفكر والنظر ؛ وما دمت قد أخذت على نفسى أن أكتب عن الرافى
فى كل أطواره ، فلا على أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافى ؛ ولا أحسبني
بذلك أتجاوز مالى من الحق أو أتعرض لعتب أو ملامة ، فقد خرج الرافى
من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ ، وللتاريخ حق واجب الوفاء

١ — وزوج الرافى مصرية صريحة النسب ، من أسرة البرقوقي المعروفة فى (منية
جناح — دسوق) وأخوها الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب (البيان) ؛
وقد كانت صلة الأدب بين الرافى وعبد الرحمن البرقوقي هى أول السبب
فى هذا الزواج .

حدثنى المرحوم الرافى قال : « ... كنت فى الرابعة والعشرين ، وكنت أعرفه

عبد الرحمن البرقوقي نوعاً من المعرفة التي تربط بين شابين توافقا في الطبع ،
واتفقا في الغاية ؛ وكان عبد الرحمن طالباً أزهرياً ولوعاً بالأدب ، له حظوة ومكان
عند الأستاذ الامام إذ كان من تلاميذه الأذنين ؛ وكنا نلتقي أحياناً ؛ فسرني منه
ماسره مني ؛ وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزهرين ؛ إذ كان
له من غنى أبيه ومن جاء أسرته عز وكرامة ... فما تعارفنا حتى تصافينا ، ثم اتصل
بيننا الود ، فكنت له وكان لي ، أصفى ما يكون الصديق للصديق ...

« لم أكن أعرف له أخوا أو أختاً ، ولم يجر في بالي قط أن الصلة بيننا
ستتجاوز ما بيننا ، حتى كان يوم جلست فيه أتحدث إلى نفسي ، فكأنني سمعت
صوتاً من الغيب يهتف بي أن صديقي عبد الرحمن هو صهرى وأخو زوجى ...
وانتهت وأنا أسأل نفسي : أله أخت ؟ ياليت ... ! لو كان إننى إذاً من
السعداء ...

« وكانت نفسي في الزواج ، فما هي إلا أن تحرك في نفسي هذا الخاطر
حتى سميت إلى صديقي عبد الرحمن ، وقلت له وقال لي ، وجرتنا الكلام إلى حديث
الزواج ، فقلت لصاحبي : من لي يا أخى بالزوجة التي أريد ؟ ووصفت له الفتاة
التي تعيش في أحلامي ؛ فلما فرغت من حديثي قال صاحبي : أنا لك بما تريد .
قلت : أتعرف ؟ قال : هي هدية أقدمها إليك . قلت : من ؟ قال : أختي ! »

قال الرافعي : « وغشيتني غشية من الفرح ، فما تلبثت حتى مددت إليه يدي
فقرأنا (الفاتحة) ، وما وقع في نفسي وقتئذ أنني أمد يدي لأخطب عروسي لنفسي ،
ولكني أمدتها لأتعرف إلى العروس التي خطبتها على الملائكة وأثبتت نبأ الخطبة
في لوح الغيب »

٧ وبني بأهله ، وعاشا أهنأ ما يكون زوج وزوج ، ثلاثاً وثلاثين سنة
— ثلث قرن — لم يدخل الشيطان بينهما مرة واحدة ، ولم يتخاصما لأمر ،
إلا مرة . ٨ .

قال الأستاذ جورج ابراهيم : لقد حضرت عرس الرافعي ، وصحبته طوال يومه

حتى صعد إلى جلوة العروس ، وشهدت اضطرابه وخجلته ، واستمعت إليه من بعد يتحدث عن سعادته وينبسط نفسه على حظه وتوفيقه ، فاشكا إلى مرة واحدة هما ناله ، ومضي عام . . . وجاءني ذات يوم ، فجلسنا نتحدث ، وتسرحنا في الحديث ، ولكن وجه الرافي كان ينم على سر يطويه ، ثم لم يلبث أن أفصح ، قال : يا جورج ، لقد غرمت على أمر . . . سأطلق زوجي ! وراعى هذا النبأ ونال مني : قلت : تطلقها ! لماذا ؟ قال : إن إخوتها يجحدون حقها في تركه أبيها لا يريدون أن تستمتع منه بشيء . . . قلت : فهذا هو السبب ؟ قال : نعم ، قلت : ويهون عندك أن تأخذها بما اقترف أخوها ؟ . . . مصطفى ، إنك جبار ، أو لا فاذكر أن الطلاق جريمة لم يقتربها قبلك أحد من أسرة الرافي ؛ أو لا هذا ولا ذاك ، فاذكر أن أهل (طرابلس الشام) لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة معيبة وقعت مرة ولن تتكرر من بعد . . . فكن بعض أهلك يا صاحبي . . . ! قال : وأطرق الرافي هنيهة ثم قال : أحسبتي أفعلمها . . . ! ؟

قال : ولم يدخل الشيطان من بعد بينه وبين أهله ، إذ كان كل منهما يعرف لصاحبه حقه وواجبه . . . ومضت اثنتان وثلاثون سنة بعد هذه الحادثة ، كما يمضي شهر المسل ، أو شهر الفزل ، ليس فيه إلا العطف والمحبة والاحترام .

كان الرافي يعيش في بيته عيشة مثالية عالية ؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج ، وأب كما ينبغي أن يكون الأب ؛ وما كان منكوراً لأحد من أهله أن الرافي ليس موظفاً كسائر الموظفين : عمله في الخارج وحسب ؛ بل كانوا جميعاً يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير ، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها عليه مكانته الأدبية ، فيهيئون له أسباب الهدوء والراحة والاطمئنان . كان في بيته كالملك من الحكومة الدستورية : يملك ولا يحكم ، ويعيش في جو من الاحترام والرعاية والطاعة ، فوق الأحزاب وفوق المنازعات ؛ فمن ذلك لم تكن (سياسة) البيت تشغله أي شغل أو تشغى على هدوئه وتمكر صفوه ؛ فكان خالصاً لنفسه ،

منقطعاً لفنه وعمله الأدبي ، فدار كتبه له هو وحده ، وطعامه مهياً في موعده ، وعلى نظامه ، وفراشه ممد في موضعه لساعته ، ونظامه الذي يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعى مضبوط

على أنه كان إلى ذلك يعرف واجبه لزوجته وأولاده ، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلاً عالياً من الحب والوفاء . وأنا ما عرفت أباً لأولاده كما عرفت الراقى ؛ إذ يتصاغر لهم ويناعيمهم ويدلهم ويأدبهم حباً بحب ، ثم لا يمنعهم هذا الحب العالي أن يكون لهم أباً فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والارشاد ، ناصحاً برفق حين يحسن الرفق ، مؤدباً بعنف حين لا يجدي إلا الشدة والعنفوان .

وما دمت بصدد الحديث عن الراقى في أهله ، فإن واجباً على أن أتحدث هنا عن شيء من (حب الراقى) أراه يتصل بهذا الموضوع :

في فترة ما من حياة الراقى — سيأتي الحديث عنها بتفصيل أوفى فيما بعد — كان للراقى هوى وغرام ، ووقع له في هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب ، ودافع نفسه ما دافع فلم يجد له طاقة على المقاومة ، واحتال على الخلاص فما أجده الحيلة إلاهما على هم ، وكان حبه أقوى منه ، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه . وقال لنفسه : ما أنا وهذا الحدث الذي يعترض طريقى ويغلبنى على إرادتى ؟ إن في بيتى امرأة أحبها وتحبني — والحب عند الراقى لا يأبى الشركة ! — وإن لها على حقاً ليس منه أن يكون منى لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لي ! ماذا يكون من أمرى وأمرها غداً أمام الله حين يطلب كل ذى حق حقه ؟ أقول لها : نعم قد ضيعت حقك وأعطيت من قلبي الذي لا أملك لمن لا تملك ؟ وبلى ! إنها الحياة والإثم والعار !

وذهب إلى زوجه فحدثها وحدثته ، وأفضى إليها بخبره وكشف لها عن نفسه ، ثم قال : وأنت يا زوجتي ، هل يخفى عليك مكانك منى ؟ ولكن ...

واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة ... ثم أذنت له ... وكتب الرافعي رسالته الأولى إلى صاحبه التي غلبته على قلبه ، وقرأت زوجته الرسالة وطوتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد ...

وجاء جواب صاحبه فقرأته زوجته كما قرأت رسالته ، وصار هذا دأبهما من بعد ... لا ترى زوجته لها حقاً عليه إلا أن تعرف ، ولا يرى على نفسه في ذلك ملامة مادامت زوجته تعرف ... !

وأنشأ هذا الحب سلسلة من الطرائف في الأدب العربي تم بها نقص العربية في فلسفة الحب والجمال ، هي « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » و « أوراق الورد » ؛ ولكن أحداً لم يقرأ القصة الأخرى ... قصة هذا الوفاء وهذه التضحية ، لأن الرافعي لم ينشرها فيما ألف من الكتب في فلسفة الجمال والحب ... !

